محاضرات في النقد الأدبي القديم

المحاضرة الأولى "قضية السرقات الأدبية"

تعد قضية السرقات الأدبية من أعقد القضايا النقدية التى تصدى لها النقاد العرب قديما، حتى أصبحت محكهم في الاحتراف والحذق النقدي، ولإن امتدت جذورها إلى بدايات النقد الأدبي القديم إلا أن الملاحظ هو تطورها الهرمي واتساع بؤرة المنشغلين عليها كلما تقدم الزمن، يفسر ذلك اختلاف الرؤى حولها، واتساع جهازها الاصطلاحي(أخذ، تضمين، نسخ، مسخ، سلخ...إلخ) أضف إلى ذلك تبلور المناهج في مقاربتها.

ويمكن حصر العوامل التي عجلت بارتقاء قضية السرقات إلى مستوى الدراسة المنهجية إلى عاملين أساسين:

أولهما: تأثر النقد بمذهب المعتزلة، ودخول نقاده على خط البحث في هذه القضية لارتباطها بقضية المعنى وهي جوهر البحث الاعتزالي حيث أصبح النقاد يقفون وقفات طويلة عند البحث عن المعاني ومن ثم عن قضية أخذها أو سرقتها، حتى طغت هذه المشكلة على سائر المشكلات النقدية وأهدرت في سبيلها جهود كثيرة.

والأخرى:قيام خصومة حول الشاعرين أبو تمام والمتبي يقول محمد مندور تعليقا على هذه المسألة:"ومن الثابت أن مسألة السرقات قد اتخذت سلاحا قويا للتجريح، ونحن نعلم أنه قد كتبت عدة كتب لإخراج سرقات أبي تمام والبحتري،وكان المؤلفون متعصبين لأبي تمام ومذهب البديع أو البحتري وعمود الشعر، أي منقسمين إلى أنصار القديم وأنصار الحديث، ثم إنه عندما قال أصحاب أبي تمام أن شاعرهم قد اخترع مذهبا جديدا وأصبح إماما فيه لم يجد خصوم هذا المذهب سبيلا إلى رد ذلك الادعاء خيرا من أن يبحثوا للشاعر عن سرقاته ليدلوا على أنه لم يجدد شيئا، وإنما أخذ عن السابقيين ثم بالغ وأفرط.

ويضيف قائلا:وأكبر دليل على أن دراسة السرقات دراسة منهجية قد نشأت على تلك الخصومة هو استعمال لفظ السرقات، إذ استعمل النقاد المجردون عن الهوى ألفاظا أخرى ك"الأخذ" التي نجدها عند ابن قتيبة و"السلخ" التي استعملها أبو الفرج الأصفهاني، وأما لفظة السرقات فقد ذاعت وسط الخصومة حول أبي تمام بيت أنصار القديم وأنصار الحديث، وكان أول كتاب ألف بهذا العنوان فيما نعلم كتاب عبد الله بن المعتز"سرقات الشعراء" ثم تلت ذلك كتب، فألف أحمد بن أبي الطاهر وأحمد بن عمار في سرقات أبي تمام، وكتب أبو ضياء بشر بن تميم كتابا في سرقات البحتري من أبي تمام وكذلك كتب مهلهل بن يموت في سرقات أبي نواس"

وفيما يلي رصدت لأهم الدراسات المنهجية التي تصدت لمشكلة السرقات:

1-كتاب طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي

-يعترف ابن سلام بوجود السرقات في العصر الجاهلي ويؤكد اعترافه هذا بأبيات سرقها زهير بن أبي سلمى من الشاعر قراط بن حنش أحد شعراء غطفان

-تنبه ابن سلام إلى فكرة الاقتباس والتضمين في شعر الجاهليين

- تنبه ابن سلام إلى أن اختلاف الرواية يؤدي أحيانا إلى فكرة السرقات

- فطن ابن سلام إلى ان المعنى الذي يكثر تداوله بين الشعراء يدخل في باب المشترك وليس في باب السرقة

2- **الشعر والشعراء لابن قتيبة**

- وسع ابن قتيبة رأي ابن سلام القائل بفكرة المعنى المشترك بين الشعراء
- تنبه ابن سلام إلى أن زيادة الأخذ على المعنى المأخوذ تبيح له فضل الزيادة
- تنبه إلى السرقة الخفية
- تنبه إلى أن الاسرقة لا تكون في اللفظ والمعنى فقط بل تكون أيضا في الطريقة التي ينهجها الشاعر في قصيدته ومثل لذلك بمسلم الوليد ومن حذوا حذوه.

3- **عيار الشعر لابن طباطبا**

- يقف إلى جانب المحدثين من الشعراء، والتمس لهم العذر لأنهم سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة وخلابة ولهذا السبب يبيح الاقتداء بأشعار الأقدمين وفق شروط أهمها:
- إلطاف الحيلة في الأخذ
- تدقيق النظر وإطالته في تناول المعاني واستعارتها
- تلبيس المعاني حتى تخفى على النقاد والعارفين بها
- استعمال المعاني في غير الغرض الذي تناولها منه الشاعر
- تناول المعنى اللطيف في النثر وجعله شعرا

4- **الموازنة للآمدي**

- يؤمن الآمدي أن سرقات المعاني ليست من كبير مساويء الشعراء خاصة المتأخرين

- يرى الآمدي أن السرقة إنما تكون في البيديع المخترع وليس في العام المشترك
- يتفق الآمدي مع ابن طباطبيا في الإيمان بالسرقة الممدوحة والأخذ الحسن
- يرى الآمدي أن تقارب البيئة يجعل الشعراء يتفقون في الكثير من المعاني

5- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني

- يدعو القاضي الجرجاني إلى التحرز في الحكم بالسرقة والتحفظ في ادعائها
- اهم مصطلحاته"السرقة، الغصب، الإغارة، الاختلاس، والإلمام والملاحظة، والمشترك الذي لا يجوز ادعاء السرقة فيه، والمبتذل الذي ليس أحدا أولى به، والمختص الذي حاز المبتديء
- نفى الجرجاني وجود السرقة في حالات كثيرة كتةارد الخواطر والاشتراك في المعنى وغيرها

6- أسرار والبلاغة ودلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني

- هاجم الجرجاني النقاد الذين يبالغون في ادعاء السرقة، مغفلين شأن الاحتذاء الذي هو سبيل كل مبتديء، وله حديث طويل في تفسير معنى الاحتذاء عند أهل العلم
- أم السرقة عنده ليس لفظ ومعنى فقط، وإنما هي صياغة وتصوير
- حاول أن يحدد تحديدا فلسفيا معنى العام المشترك ومعنى الخاص، فعقد لذلك فصلين في أسرار البلاغة، ويسمي النوع الأول عقليا والثاني تخييليا، فالعقلي هو ما كان وليد التجارب اليومية، والثاني هو تلك المعاني التي يولدها الشعراء دون أن تلاقي حقيقة أو تصورا واقعيا

وعليه فالمعنى العقلي لا يكون فيه سرقة وإنما يكون ذلك في المعنى التخييلي

كانت هذه باختصار محطات قصيرة عند أبرز النقاد الذين تناولوا بالدراسة المنهجية لقضيبة السرقات، غير أن تاريخ التقد العربي حافل بالكثير من الدراسات وخاصة خلال القرن الرابع ومطلع القرن الخامس ككتاب الصاحب بن عباد"الكشف عن مساويء المتنبي"وابن وكيع التنيسي" وابن رشيق القيرواني .

واستخلاصا من آراء السابقين فإن شأن السرقات لا يخرج عن أصلين هما:

أولا :معاني عامة لا يعتبر أخذها سرقة والسبق فغيها يعتمد على العرض من حسن اللفظ وجزالته وحسن السبك ورصانته

ثانيا:معاني خاصة"مبتدعة"ويعتبر أخذها سرقة لكن تتفاوت درجة السارق حسب إبداعه في عرضها وتلبيسها أو إخفائها.

المصادر:

- طبقات فحول الشعراء .محمد بن سلام الجمحي، تح:محمود محمد شاكر.دار المعارف مصر
- الشعر والشعراء، أبو محمد بن قتيبة.دار الثقافة بيرةت
- عيار الشعر.ابن طباطبا.تح الحاجزي وزغلول سلام.القاهرة 1978
- الموازنة.الحسن بن بشر الآمدي.تح سيد صقر.القاهرة 1975
- الوساطة بين المتنبي وخصومه.القاضي الجرجاني.تح. محمد أبو الفضل، وعلي محمد البجاوي، ط3.دار إحياء الكتب العربية
- أسرار البلاغة . عبد القاهر الجرجاني .تح .محمد رشيد رضا.دار المعرفة بيروت.2001
- دلائل الإعجاز.عبد القاهر الجرجاني .تعليق محمد رشيد رضا، لبنان 2001

المحاضرة الثانية

أثر المعتزلة في النقد الأدبي

يمكن اعتبار دخول تيار المعتزلة دائرة النقد الأدبي محطة مفصلية في تاريخ النقد الأدبي عند العرب وقيمة معرفية ومنهجية مضافة، وربما كان على النقاد العرب أن ينتظروا ردحا من الزمن ليبلغوا ما بلغوه في مقارباتهم النقدية لولا دخول المعتزلة هذا المضمار، وإذا كان التذوق محطة حاسمة في الفعل النقدي لا يمكن تجاوزها فإنه في الوقت نفسه محتاج إلى مراحل أخرى ترتقي به إلى مستويات من العلمية والمنهجية والدقة في المقاربة والنظرة المتكاملة، وقد امتلك نقاد المعتزلة شيئا من هذه القوة الدافعة بنزوعهم العقلي وتعدد مشاربهم الثقافية التي تجاوزت أقاليمها، ولم تعد تؤمن بأحادية الثقافة، قوة أهلتهم إلى إخراج النقد من دائرة التأثر والانطباع إلى دائرة الموضوعية والمنهجية والتطبيق

وولدوا من خلال هذا التوجه الجديد واقعا نقديا يقوم على الجدل والمناظرة والحجة والاستدلال

فلا عجب أن نجد أمهات القضايا التي عجت بها الساحة النقدية في عصرهم ذات طابع ثنائي جدلي(اللفظ والمعنى، (الطبع والصنعة) (الشعر والنثر) (القدم والحداثة) (الصدق والكذب)

وقادهم جنوحهم العقلي إلى التركيز على قضايا المعنى ومنه نجد اشتغالهم الشديد على قضية السرقات حيث أثلجوا صدورهم بتتبع تفاصيلها.ولما كان الإقناع هدفهم ومناقضة الخصم غايتهم وجدوا في الخطابة أطوع الأجناس الأدبية لهم، ومع ذلك أرادوا أن يلحقوا الشعر بها وحاولوا جاهدين أن يقربوا المسافة بين الجنسين، وأن يجعلوا منهما وسيلة واحدة لغاية واحدة، وكاد يمحى الفاصل بين الشعر والخطابة في نظر النقاد، ووضعت مقاييس عامة تصلح للشعر مثلما تصلح للخطابة، وفي مثل هذا الجو نسمع الثناء على قصيدة عبيد بن الأبرص بأنها أحرى أن تسمى "خطبة بليغة".

ويمكن تتبع الأثر الاعتزالي في النقد من خلال جهود أبرز أقطابه على قلة ما ما وصلنا من مؤلفاتهم.وسنكتفي ههنا بنموذجين هما بشر بن المعتمر والجاحظ، على أن نترك فرصة البحث في جهود السابقين واللاحقين لهذين العلمين متاحة لذوي الشغف والفضول.

بشر بن المعتمر(210ه)

من كبار المعتزلة وقد انتهت إليه رياستهم في بغداد، وكان من بلغائهم وفصحائهم المشهورين، على أنه في النقد اشتهر بصحيفته، والتي يمكن إجمال ما ورد فيها فيما يلي:

- تحدد الصحيفة للأديب أوقاتا يسمح فيها القول، وتجود القريحة، فليس الأديب أو اتلفنان بقادر على الإبداع في كل لحظة، وذلك القول التي تأتيك به نفسك"ساعة نشاطك وفراغ بالك هو القول الجيد، وهو أكرم جوهرا وأشرف حسبا وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور من ذلك القول الذي يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهرة، لان في القول الأول سيما الطبع وفي القول الثاني سيما التكلف
- الدعوة إلى البعد عن التقعر والتعقيد سواء في الألفاظ او في المعاني، فالتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك
- مشاكلة اللفظ للمعنى، دعا بشر في صحيفته بإلحاح إلى مشاكلة اللفظ لمعناه ، يقول:"ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن من حق المعنى الشريف لفظ شريف
- وتحدثت الصحيفة عن شروط القافية الجيدة وهي التي استقرت في مكانها، غير نافرة ولا قلقة، ومن هنا كانت القافية لم تحل في مكانها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة في موضعها، وقد أكرهت إكراها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها.
- ثم تقسم الصحيفة الناس من حيث قدرتهم الفنية، ومواهبهم الأدبية، واقتدارهم على الكلام إلى ثلاث مراتب

أ-مرتبة الأديب الحاذق المطبوع، ب-مرتبة الأديب المتوسط، ج-مرتبة المرء الذي تنعدم فيه قابلية الأدب

تلك هي الأسس النقدية التي قررتها صحيفة بشر بن المعتمر والتي ستصبح فيما بعد مدار بحث لدى معظم النقاد.

عمر بن بحر الجاحظ (255ه)

يمثل الجاحظ بامتياز مرحلة وعي التحولات الفكرية والثقافية والاجتماعية التي مست عصره، أسعفه في ذلك تشبعه بثقافة عصره بتعدد مشاربها وتوجهاتها، واختلاف أنساقها، حيث يشكل نشاطه النقدي

جزء صغيرا من مبنى فكري كبير متعدد الجنبات والزوايا، أضف إلى ذلك نزعته العقلية التي شكلتها ثقافته أولا وذكاؤه ثانيا وانخراطه في المذاهب الكلامية ثالثا.

كل هذا جعل الرجل يملك فكرا نقديا متوازنا، قليل الجنوح إلى العاطفة أو العصبية، أميل إلى الوسطية والاعتدال في الطرح، نلمس ذلك في موقفه من قضية القديم والحديث، فقد كان توفيقي النظرة، لا يعتقد بتقديم قديم على محدث، وهذا الرأي له نجده صريحا في قوله:"وقد رأيت اناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد مما كان وفي أي زمن كان، وعندما تحدث عن أبي نواس قال:"وإن تأملت شعره فضلته إلا ان تعترض عليك فيه العصبية أو ترى ا ن اهل البدو أبدا أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا، بل إن الجاحظ كان أشجع التوفيقيين عامة حينما ذهب يفضل قصيدة لأبي نواس على قصيدة لمهلهل في الشاعرية.

وتتضح جرأة الجاحظ النقدية أكثر في موقفه من قضية اللفظ والمعنى، حيث رأى أن المعول عليه في الشعر إنما يقع على إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، وبهذا التحيز للشكل قلل الجاحظ من قيمة المحتوى وقال قولته التي طال ترددها:"والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي."

تتضح هذه الجرأة اولا في عدم متابعة أستاذه النظام في قوله بالصرفة تفسيرا للإعجاز، وإنما وجد أن الإعجاز لا يمكن تفسيره إلا بالنظم، وهي مقولة ستتشكل في فيما بعد أساسا لنظرية النظم الجرجانية التي كان لها صدى أقوى على الساحة النقدية والبلاغية.

وثانيا يمثل اهتمامه بالشكل في زمنه جرأة في حد ذاته، حيث أدى الشغف بالمعاني بعامة النقاد إلى صرف اهتمامهم بسرقة المعاني وتتبع حركيتها بين الشعراء، وأصبح ذلك هو شغلهم الشاغل.

ويظهر الجاحظ ببصيرة أقوى في تمييزه بين الصحيح والمنتحل من الشعر، ينم عن رسوخ في علمه بالشعر وروايته، فيعلق على بيت منسوب لأوس بن حجر:

فانقض كالدري يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

"وهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر وشريح بن أوس.

ويعلق أيضا على بيت الأفوه الأودي:

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

يقول:"وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم وهو جاهلي، ولم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون."

وعلى العموم فإن ما ذكرناه لا يعدو أن يكون جزء صغير من بنية نقدية كبيرة كان يمثلها الجاحظ، والمتصفح لكتبه ورسائله لا شك أنه سيقف على أسرار أخرى تثبت عبقرية هذا الناقد وسعة ثقافته، ثقافة تتسرب في أحايين كثيرة إلى أسلوبه، فيسترسل مطلقا العنان لجملة معارفه وثقافاته وتجاربه

وعلى العموم فإن مساهمة نقاد المعتزلة تشكل جوهر الدرس النقدي العربي بل حقيقته، ودافعه الرئيسي إلى جو المقاربة الموضوعية، باعتمادهم العقل في مواقفهم وآرائهم، ذلك أن العقل يحد من جموح العاطفة والعصبية، وذلك ما كنا نشهده في عصور سالفة .

المصادر:

- التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري للدكنور وليد قصاب.الطبعة الأولى.1985نشر وتوزيع دار الثقافة الدوحة.
- تاريخ النقد االأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس .الطبعة الأولى 1981.بيروت –لبنان
- البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين.الدكتور محمد علي زكي الصباغ.الطبعة الأولى 1998.المكتبة العصرية .صيدا بيروت

قضية اللفظ والمعنى

لقد كان لهذه القضية فضل الدراسة لدى النقاد ما جعلها في مرتبة الريادة مقارنة بالقضايا الأخرى، وما هو جدير بالذكر في هذا الصدد هو أن أي كتاب تناول جودة الأداء ورداءته ، لم يكن صاحبه في حل من مراعاة هذه المسألة والتطرق لإشكالها كونها اتخذت مبدأ أساسيا في تقدير عملية الابداع وتعليل الأحكام النقدية، وجوهر الإشكال في هذه المسألة يعود إلى مراعاة النقاد أحكام القيمةوالتقدير الجمالي للعمل الأدبي، وذكر الصفات التي اختص بها عنصر الألفاظ وكذا الصفات التي اختص بها عنصر المعانيى، قصد إبراز مقدار مساهمة كل منهما في جمال التعبير ورداءته، لكن هذه الرؤية أدت بمعظم النقاد إلى الوقوع في التقسيم المنطقي بين اللفظ والمعنى الذي لا يخرج في عمومه عن جودة اللفظ والمعنى أو رداءتهما أو جودة إحداهما ورداءة الآخر.

أصول القضية وبواعثها

يمكن رد البواعث الأولى لهذه القضية كما تردد في كثير من كتب الباحثين إلى الصراع الخفي بين العرب والشعوبية، حتى قيل أن أنصار اللفظ وأنصار العبارةمن العرب أو من المتعصبين للعرب وأن أنصار المعنى من غير العرب وكل ما يقال في هذا الشأن ان الشعوبيين كانوا ينكرون على العرب بيانهم ويبهرجون أدبهم مما أدى بالجاحظ إلى تأليف كتاب البيان والتبيين ليحتج فيه على رسوخ قدم العرب في الفصاحة والبيان والخطابة .وله في ذلك نص صريح يقول :"وأحرى أنك متى أخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ومعدن الفصاحة التامة ووقفته على شاعر مفلق أو خطيب مصقع علم الذي قلت الحق وأبصر الشاهد عيانا فهذا فرق ما بينرنا وبينهم ."

أما الباعث الثاني وهو الأرجح في رأينا هو ارتباط هذه القضية بإعجاز القرآن الكريم، ويتضح ذلك جليا من خلال مقولة عبد القاهر الجرجاني التي تلخص ذلك بصورة جلية ومفادها أن القول بأن المزية في حسن النظم والتأليف إنما كانت للعرب من جانب العلم باللغة غلط منكر يفضي بقائله إفلى رفع الإعجاز من حيث لا يعلم وأن القول بأن بلاغة الكلام ليست إلا من جانب معناه خطأ عظيم يفضي إلى رفع الإعجاز ويبطل التحدي من حيث لا يشعر القائل.